٥ — على هامش الدفاع عن الشرق الأوسط

للدكتور عمر حليق

١ — الصراع العقائدى وعلاقته بفكرة الدفاع عن الشرق الأوسط

ضرورة التعرف على جوهر السلوك السوفيتى

المنطق الرئيسى الذى تلجأ إليه الحكومتان الأمريكية والبريطانية ومعها بقية الحلف الأطلنطى لإقناع الدول والشعوب العربية بالتعاون معهما فى نظام للدفاع المشترك عن الشرق الأوسط يستند إلى خطر تعتقد دول الحلف الأطلنطى أنه كامن فى مطامع روسيا السوفيتية للتوسع فى الشرق الأوسط ورابض فى صميم الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية (والسياسية كذلك) التى تعيش عليها شعوب الشرق العربى وبعض الشعوب الإسلامية المجاورة

وفى اعتقاد كاتب هذه السطور أن من أهم الأمور التى يجب أن يشغل بها صناع السياسة والمطلعون الاقتصاديون والاجتماعيون فى الشرق العربى هو محاولة التعرف على دقائق السلوك السياسى والفكرى للشيوعية العالمية ممثلة فى مركزية الاتحاد السوفيتى وفى الحركات الشيوعية المحلية فى مختلف البقاع — حركات تدين لموسكو بالولاء وتستوحى منها الإرشاد والتوجيه

فإن أبرز مافى هذه الاتجاهات السياسية والفكرية فى حاضر الشرق إجمالا والعالم العربى على وجه الخصوص هى البلبلة السياسية والفكرية التى تعترى القادة والمواطنين حين يحاولوا مخلصين صادقين فى تحديد موقفهم السياسى ومبادئهم الاقتصادية والاجتماعية إزاء التنافس الحاد الذى يشهده الشرق العربى (بل العالم بأسره) بين المعسكرين المتطاحنين الشيوعى وحلف الأطلنطى

ولقد وجد الشرق العربى نفسه ملما بكثير من دقائق السلوك البريطانى والأمريكى والفرنسى وهؤلاء هم دعامة المعسكر الغربى وذلك بفضل هذه التحاليل القاسية المرة التى تكشفت عن ألوان الثقافة الغربية التى تجد سبيلها إلى الثقافة العربية وعن الحاكم بالمحكوم والتاجر بالمشترى والقوى بالضعيف سواء فى استعمار بريطانيا السابق لأجزاء هامة من عالم العرب أم صهيونية أمريكا ومعاملها الاقتصادية والدبلوماسية أم فى استرقاق الفرنسيين لعرب المغرب الأحرار

ولكن يندر أن تلمس فى تجارب العرب السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية احتكاكا مباشرا مع الروس توفر للمواطنين العرب وزعمائهم السياسيين فرصا نافعة تعرفوا فيها على دقائق السلوك الروسى على ماعرفوه من سلوك الأمريكان والأوربيين فى تجاربهم الطويلة معهم

وإن من غير الصواب أن نحلل الفكر والسلوك لروسيا السوفيتية على ضوء موجات الدعاية أو بما نلمسه من سلوك العناصر الشيوعية المحلية التى تدين بالولاء لموسكو ، فللفكر السوفيتى خصائص فريدة زرعت ونمت وشبت فى طبيعة المجتمع الروسى ، وإن مايصدر إلى الخارج من هذه الخصائص السوفيتية عن طريق الحركات الشيوعية خارج الاتحاد السوفيتى لا يتعدى نماذج مصطنعة اختيرت لتلائم وضعا إقليميا معينا ، وهذه النماذج تختلف باختلاف الأوضاع الإقليمية وباختلاف الشعوب التى يجرى فيها النشاط الشيوعى . فالبضاعة التى تروجها الشيوعية المحلية فى الشرق العربى مثلا تختلف عن النماذج التى يروجها الشيوعيون فى إيطاليا أو فرنسا مثلا . وكل هذه النماذج ليس صورة صادقة لحقيقة الأهداف التى تطمح موسكو لتنفيذها فى المراحل النهائية

والمهم أن ندرك أن الوضع الجغرافى والمركزى الدولى للعالم العربى يفرض علينا يقظة حساسة لمراقبة دقائق السلوك السياسى والفكرى لكلا المعسكرين التطاحنين السوفيتى والغربى . ولما كانت علاقتنا السياسية والثقافية مع المعسكر الغربى متواصلة مستمرة توفر لنا وسيلة طيبة للتعرف على تفكير هذا المعسكر ونواياه وأهدافه وسلوكه ، وحيث أن صلتنا الفكرية والسياسية بالاتحاد السوفيتى بعيدة منقطعة ؛ فإن المصلحة الجوهرية لكياننا

القومى تفرض علينا سبر غور هذا اللغز السوفيتى خصوصا وأن فى العالم العربى أوساطا واعية ذات مكانة ونفوذ تؤمن بأن كثيرا من مشاكلنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية مرتبطة « باورقة الغامضة » التى يحملها الاتحاد السوفيتى إزاء الشرق الأوسط فى هذه القامرة السياسية والعسكرية التى يلعبها المجتمع الدولى فى هذه الأيام

وبعد فإن كاتب هذه السطور لن يحاول فى هذا البحث أن يقارن بين أهداف الطرفين (الروس وحلفاء الغرب) وسلوكهما ، ولن يطمح فى أن يربط قضايا العالم العربى بهذا أو ذلك . وإنما هى محاولة للتعرف على بعض الحقائق الجوهرية للفكر والسلوك الروسى فى إطاره العام ، فلعل فى هذه المحاولة نفعا للمواطن العربى الذى يقف بين حجرى الرحى ومقدراته العامة والخاصة فى يديه يحاول أن يجد الخلاص من هذا المأزق المحرج الذى فرضه عليه صراع فكرى وسياسى واقتصادى بين كتلتين سياسيتين تتنافسان اليوم على السيادة الدولية

***

ليس المهم فى هذا النوع من البحث أن يحلل الكاتب المبادئ الفكرية (الأيديولوجيه) التى تستند إليها الدعوة الشيوعية السوفيتية بقدر ما يهمه أن يتعرف على الأساليب التى تتميز بها السياسة السوفيتية عند قيامها بتنفيذ هذه المبادئ فى روسيا نفسها وفى العالم الخارجى

فالاقتناع بالعقائد والنظم الفكرية (شيوعية كانت أم غير شيوعية) أصبح اليوم أمرا ثانويا إزاء سياسة توازن القوى التى تشوب سلوك المعسكرين الكبيرين الروسى والغربى . لقد أصبح كلا الطرفين أميل إلى توطيد نفوذه فى المناطق الحساسة (كمنطقة الشرق العربى) فى أساليب تبتعد فى كثير من الحالات عن جوهر المبادئ والمعتقدات الفكرية التى تستند إليها نظم الحكم فى كل من الاتحاد السوفيتى ودول حلف الأطلنطى. فالعالم اليوم فى حالة حرب « باردة » وحالات الحرب تستلزم خدعة فى السلوك ومناورة فى أساليب الكر والفر الدبلوماسى . وعلى ذلك فإن حاضر الوضع الدولى يتطلب اهتماما بدقائق هذا السلوك أكثر من اهتمامه بالمعالجات المنطقية لجوهر النظم الفكرية والسياسية التى تبشر بها الدول الكبرى التى لها القول الفصل فى مصير السلم والحرب

ولقد أشرنا فى فترة سابقة إلى أن الشعوب العربية قد اختبرت عن كثب كيف أن سياسة الدول الديمقراطية الغربية فى العالم العربى لا تتمشى فى كثير من الحالات مع المبادئ الديمقراطية التى يستند إليها الفكر الغربى وأنظمة الحكم القائمة فى أوربا وأمريكا. فأساة فلسطين علم على ذلك وتراث الاستعمار الغربى فى دنيا العرب مثل حى من أمثلة هذا التناقض بين العقائد والسلوك

أفليس من الصواب إذن أن نسعى لمعرفة ألوان التناقض بين العقيدة الشيوعية السوفيتية وبين سلوكها السياسى مع العالم الخارجى ، ونحن فى منطقة حساسة يتوقف كيانها السياسى وبقاؤها على خارطة الأرض على ما يتمخض عنه صراع الدول الكبرى المتنافسة . ألم يصرح الجنرال أيزنهاور كبير القادة العسكريين فى دول الحلف الأطلنطى بأن الشرق الأوسط هو أهم ميدان عسكرى فى خارطة العالم العسكرية [1]

وبعد فإن التعرف على دقائق السلوك يتطلب معرفة بخصائص العقلية السوفيتية . ويجب أن نميز بين العقلية السوفيتية وبين العقلية الروسية ؛ فالأولى إطار فكرى يعيش على تراث ماركس ولينين — وستالين وهو تراث راسخ فى ثقافة رجال الحكم وصناع السياسة الذين يسيطرون على مقدرات روسيا اليوم . والثانية عقلية « شعبية » تراثها الثقافة الروسية التقليدية والمقومات التاريخية والأدبية والعاطفية وطبيعة المناخ والإقليم وسائر ألوان النشاط الإنسانى التى تتميز بها الشعوب من بعضها . ولاشك أن هناك تشابكا بين العقلية السوفيتية وبين العقلية الروسية بحكم أن رجال الحكم المسؤولين عن روسيا اليوم هم من صلب الشعب الروسى . وهذا التشابك بين العقليتين ينقطع فى كثير من الحالات والأحداث الخطيرة الهامة . ففى عقول البلاشفة السوفيتيين طبقات كثيفة من فلسفة ماركس ولينين وستالين والمدارس الفكرية المنبثقة عنها ترقد فوق تراثهم ومقوماتهم الخاصة الروسية التى ورثوها بحكم كونهم من إنتاج الشعب الروسى ، ولكن

(١) — فى خطاب له أمام مجلس الحلف الأطلنطى فى دورته المنعقدة فى روما فى شتاء سنة ١٩٥١